"حياتي هي المسيح والموت ربحٌ لي" (فل ١: ٢١)
اختبار بولس الرسول وشهادة القديسة رفقا

مقدّمة

نحن نعلم أنّ الموت هو الحزن، هو الفراق، هو نهاية القصّة عندما يُغلق كتاب الحياة الأرضيّة. فكيف يُعتبر الموت ربحًا؟ وأيُّ إنسانٍ يفرحُ بالموت ويعتبره ربحًا؟

الموت كائنٌ معنا في صميم كياننا البشري، وهو أعظم موضوع يعترضنا في هذه الحياة الدنيا. يجرِّدُ الإنسان من كلّ شيء، حتّى من ذاته التي يحبّها، ولا يبقى له إلاّ روح الحياة ذاتها. نعم إنّه الموت، الذي هو بحسب المفهوم البشري، نهاية المطاف، إذ تُدفن الآمال وينتهي كلّ شيء في هذه الحياة التي يعيشها على الأرض[١]. فالموت أكبر الثوابت التي يواجهها الإنسان، ويأتيه دون انتظارٍ أو إعلانٍ، بعد مرضٍ، أو حادث، أو حرب، كما يأتيه وهو في فراشه في وقتٍ لم يحسب له حسابًا قطّ. ورغم كلّ هذا، هناك أناسٌ يفرحون به ويعتبرونه ربحًا لا خسارة، فمن هم هؤلاء الناس يا ترى؟

من الممكن أن يعتبر الإنسان موته ربحٌ في حالةٍ واحدة: عندما يكسب في الموت ما لا يستطيع أن يكسبه على الأرض. لكن ما هو الذي يكسبه في الموت؟ إن كان يكسب الملكوت في الموت، فالربّ يقول: "إنّ ملكوت الله في داخلكم" (لو ١٧: ٢١) الآن وهنا. إن كان يكسب الفرح لأنّه سينتقل من دنيا الألم إلى دنيا لا يسيل فيها الدمع من العين مُقرِّحًا، فالربّ هو اكتفاؤه الآن، وهو مكفكفٌ دموعه. فما هو هذا الربح إذن؟ إن كان يكسب الفرح في أن يكون مع المسيح، فالمسيح معه الآن هنا.

إذن، ما هو الربح الذي ينتظره الإنسان في الموت؟

١. إختبار بولس الرسول

في أحد فصول رواية هملت، وازن الكاتب الكبير وليم شكسبير بين آلام الحياة التي يمكن للموت ان ينقذ الإنسان منها، وبين أهوال الموت التي يعفيه منها البقاء في الحياة. ثمّ تساءل: أهو خيرٌ له أن يبقى في الحياة أم لا يبقى؟ فللحياة آلامها الكثيرة: نكبات الزمن، غرور الغنى، شموخ النفس، قذارة الطمع، شرّ محبة المال، وغير ذلك من الأمور التي تأنفها النفس الكريمة. وإذ يزن هذا بميزان تقديره، يعتقد بأنه من الأفضل له أن يموت لكي يتفادى هذه الآلام. ولكن ما إن يفكر في ما سوف يجرعه الموت من غصّات حتى يعود الى تفضيل الحياة[٢].

أما الرسول بولس، فإنه يرى في كلٍّ من الحياة والموت خيراً، ولهذا لا يدري أيّهما يختار. لأن كلاً منهما حلو ولذيذ. فالحياة بالنسبة له حلوة لأنها المسيح. وكذلك الموت حلوٌ لأنّه ربح، إذ ينقله إلى جوار المسيح ليتمتع أكثر بالميراث الذي وُهِب له في المسيح. ولهذا قال: "فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ الاثْنَيْنِ" (فل ١: ٢٣). لا أرى أيّهما أفضل. ولكن يبدو أن الرسول، مرّ في برهة كان الموت فيها يجذبه أكثر، حتى انتزع من شفتيه ذلك التصريح المشتاق: "لي اشتهاءٌ أن أنطلقَ وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جدًّا" (فل ١: ٢٣). إلا أنه

---

[١] هناك ثلاثة أسباب تجعل الإنسان يخاف ويرتعب من الموت: الموت خسارة ونهاية الحياة ولكلّ شيء؛ الموت آلام مبرّحة جسديًّا ونفسيًّا؛ والموت غموضٌ وجهلٌ لما بعده.

[٢] راجع: S. MCEVOY (ed.), *William Shakespeare's Hamlet*. A Sourcebook, Routledge 2006.

مع ذلك لم يرجّح فضل أيّ منهما على الأخر، بل راح يشرح بركات كلّ منهما. ففي نظرته الى الحياة، قال: "لي الحياة هي المسيح... مع المسيح صُلبت، فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فِيَّ" (فل ١: ٢١، غل ٢: ٢٠). ويا لها من عبارات مجيدة ترسم في خاطر المتأمل صورةً للرسول وكأنه واقفٌ على رصيف ميناء نيابوليس في فيليبي. ثوبه ينبئ بوعثاء السفر، ومنظره البسيط ينمّ على الفقر والضعة. ولهذا لم يعتد به أحد أولئك الناس الذين اكتظّ بهم الرصيف من مختلف الطبقات. فهنا تاجرٌ جاء ليتسقبل بضائعه الآتية من الشرق ولسان حاله يصرخ: لي الحياة هي الثروة. وهناك جمع من العمال يعملون بكدٍّ لتفريغ السفينة ونقل البضائع الى المخازن ولسان حالهم يصرخ: لي الحياة هي التعب والعرق. وهنالك فيلسوف يمسك بيده درجًا كُتِبَت فيه كلمات الحكمة، وإذ يتطلّع إلى التاجر المعتزّ بثروته، وإلى العامل المتذمّر من شدَّة أتعابه، يفتخر لأنه يحيا لقصدٍ أسمى ولا يلبث أن يصرخ مزهوًا: لي الحياة هي المعرفة. وهنالك جنديٌّ تدلُّ هيئته وسلاحه على أنَّه خاض المعارك وبُلِي فيها بلاءً حسنًا، ولسانُ حاله يصرخ بخيلاء: لي الحياة هي الأوسمة. ولكن وسط الجميع يرنُّ صوت الرسول قائلاً بلهجة التأكيد: لا، إن الحياة ليست في الثروة، ولا في الكدّ، ولا في العلم، ولا في المعارك لكسب الأوسمة، "الحياة هي المسيح"، المسيح أولاً وآخرًا[٣]، "والموت ربحٌ لي" (فل ١: ٢١) لأنّه وسام الأوسمة.

١. ١"حياتي هي المسيح والموت ربحٌ لي": حياةٌ وموتٌ معًا

إذا حذفنا من فل ١: ٢١ كلمتَي "المسيح" و"ربح" تذكَّرنَا كيف أنَّ الحياة والموت قريبان جدًا من بعضهما، إذ لا تفصلهما عن بعضهما سوى كلماتٍ قصيرة. ليست الحياة سوى عتبة الموت، والموت يتتبّع الحياة بالقرب جدًا منها. فالحياة والموت بمثابة رقّاص الساعة الذي يتمايل إلى اليمين ثمّ إلى اليسار، والإنسانُ واقفٌ بينهما.

بالنسبة إلى الرسول بولس، جسده كإنسان هو حياةٌ وموت معًا. يريد أن يمجّد يسوع في حياته، أي أن تعكس حياته عمل المسيح. حياته تعكس أنّه فَرِحٌ في المسيح لأنّ لديه شبعًا واكتفاءً في المسيح. وهو يعظّم المسيح في موته عندما يقول: إن متُّ فهذا ربحٌ لي[٤]. الربح في الموت هو أنّ فرحه الآن في المسيح على هذه الأرض هو معرَّضٌ للخطيئة والألم، بينما بعد الموت، لن يكون هناك دموع، لأنّه سيكون مع المسيح بشكلٍ كامل[٥]. الآن يعرف بعض المعرفة، لكن في الحياة الأبديّة، سيعرف كما عُرِفَ. الآن ينظر في

---

[٣] راجع E. Bianchi, *Vivre c'est le Christ.* La Lettre aux Philippiens (Spiritualité contemporaine), Médiaspaul, Paris 2007, p.51.

[٤] تحدّث بعض الشعراء والفلاسفة اليونانيّين مثل أفلاطون، وأسخيليوس، وسوفوكليس عن الموت كربح. ولكنّهم كانوا يطبّقون هذا المبدأ فقط في حال أصبح العيش في هذه الدنيا لا يُطاق. أمّا بالنسبة إلى القدّيس بولس، فالأمر مختلف: الحياة يُحرّكها إيمانٌ عميق وفرحٌ شديد، لأنّ المسيح نفسه هو الحياة، وأن يعيش، يعني أن "يحيا من أجل المسيح، وفيه ومعه". لقد أصبح المسيح علّة وجوده! من يشعر، مثل بولس، أنّه امتلأ من المسيح، لن يُرعبه الموت من بعد، لأنّه يشعر بأنّه حرٌّ تمامًا، ولم يعد يَرهب الأحداث الخارجيّة. في هذه الحالة لن يخشى الإنسان الموت، بل يكشف له هذا الأخير بهاء الحياة المعاشة في المسيح حيث يصبح المسيح كلّ شيءٍ له. راجع: Anselm GRÜN, *La vostra gioia sia piena.* Il messaggio di Paolo ai cristiani di Filippi (Itinerari biblici), Editrice Queriniana, Brescia 2006, p.32. راجع أيضًا: D. W. Palmer, "'To Die is Gain' (Philippians i 21)".

[٥] هذا ما يذكّرنا بما قاله القدّيس اغناطيوس الإنطاكي: "ماذا تفيدني ملذّات العالم؟ ما لي وفتنةِ ممالكِ هذا العالم؟ إنّي أفضّل أن أموت مع المسيح، من أن أملك أطراف المسكونة. إنّ أطلب المسيح الذي مات من أجلنا، وقام أيضًا من أجلنا. قَرُبَت الساعة التي سأولد فيها. إغفروا لي يا إخوتي؛ دعوني أحيا؛ أتركوني أموت. إنّي أريد أن أكون لله. لا تتركوني في العالم، لا تتركوني ومغريات الأرض. دعوني أصل إلى النور النقيّ. إذّاكَ أصبحُ إنسانًا حقيقيًّا. أتركوني أقتدي بآلام ربّي" اغناطيوس الإنطاكي، "**الرسالة إلى أهل رومية**"، في: **الآباء الرسوليّون**، منشورات النور، ١٩٨٢، رقم ٦-٧.

مرآة، أمّا بعد الموت فسينظر ويتفرّس في وجه المسيح. النظر في المرآة يُشبه من يقود سيّارة حياته وينظر في مراياها. الأجسام أقرب إلى السيّارة ممّا تظهر عليه. فهو معرّض للحادث في أيّة لحظة. لكن بعد الموت، لن يكون هناك مرايا، بل عناقٌ حقيقيّ وملموس للمسيح، عناقٌ لا يمكن لأيّة قوّةٍ مما في السماء أو على الأرض أن تنزعه. الآن فرح الإنسان مع المسيح كاملٌ، لكن بحسب وعيه هو ومفهومه هو للكمال، أمّا في السماء، ففرحه مع المسيح كاملٌ بحسب تعريف الله للكمال.

نرى الرسول يوازي بين الحياة والموت[٦] إذ يعتقد أنّ لكلّ من الحياة والموت بركاتهما:

١. ٤ بركات الحياة

المسيح هو مصدر حياة بولس، لأنّ الروح القدس أتى ببذرة حياة المسيح وغرسها في تربة روحه وغرس طبيعة المسيح الممجّد في طبيعته البشريّة كبذارٍ غير فاسد لكي تنمو فيه حياة المسيح بصفةٍ مستمرّة. والمسيح هو جوهر حياته. لأنّه عندما يعتبر نفسه مائتًا عن ذاته وأنانيّته يحلّ محلّها المسيح، فيستطيع أن يصرخ: "لستُ أنا الحيّ، بل المسيح حيٌّ فيّ" (غل ٢: ٢٠)[٧]. المسيح هو نموذج حياته لأنّه يكفيه أن يكون كمعلّمه (مت ١٠: ٢٥). ويجب أن يكون المسيح أيضًا هدف حياته. كان عليه أن يسعى لكي يعرفه الآخرون ويحبّوه، حتّى بذلك تتمّ مشيئته. كان المسيح أيضًا عزاء حياته وسط كلّ الزوابع والعواصف والمحن. وفي النهاية كان المسيح جزاء حياته والتاج الوحيد لجبينه والربح الوحيد الذي أتى به بعد كلّ تعبه ودموعه وتضحياته.

"الحياة لي هي المسيح" كلماتٌ تكشف لنا الستار عن النبع الذي فاض في ذهن بولس ومنه جرى كلّ شيء. فحياة بولس تشبه القيثارة، يعزف عليها الربّ بمهارة. تارةً تعزف حزنًا، ودائمًا تعزف انتصارا!

١. ٥ بركات الموت

يقول العالم إنّ الموت نهاية. أمّا الكتاب المقدّس فيقول إنّه بداية الأبديّة. يقول القدّيس بطرس عن الموت إنّه "خروج" (٢ بط ١: ١٥). وكما كان خروج بني إسرائيل من مصر بدايةً لحريّتهم، هكذا يكون الموت للروح خروجًا إلى حريّة الأبديّة. الموتُ ولادةٌ جديدة. فالرسول بولس يتحدّث عنه كولادة "بكر" (١ كور ١: ١٨). إنّه خروج الروح من عُقالها وربُطها الكثيرة التي يربطها بها العالم، ومجيئها إلى وجودها الحقيقيّ. وهو يتحدّث أيضًا عن الموت كانطلاق: "لي اشتهاء أن أنطلق" (فل ١: ٢٣). إنّ الأصل اليوناني للكلمة في غاية الروعة والجمال، فهي تُستعمل لحلّ السفينة من الميناء وانطلاقها.

---

[٦] "يشتدّ علينا الضيق من كلّ جانب ولا ننسحق، نحارُ في أمرنا ولا نيأس، يضطهدنا الناس ولا يتخلّى عنا الله، نسقط في الصراع ولا نهلك، نحمل في أجسادنا كلّ حين آلام موت يسوع، لتظهر حياته أيضًا في أجسادنا. وما دمنا على قيد الحياة، فنحن للموت من أجل يسوع لتظهر في أجسادنا الفانية حياة يسوع أيضًا...عارفين أنّ الله الذي أقام الربّ يسوع من بين الأموات، سيُقيمنا نحن أيضًا مع يسوع" (٢ قور ٤: ٨-١١؛ ١٤).

[٧] قد أتاح الإيمان لكاتب هذه العبارات التعرّف إلى المحبة التي قادت المسيح إلى الصليب. وإذا كان قد أحبّ حتى الآلام والموت، فإنه بآلامه وموته يحيا أيضاً في من يحبّ، على هذا الوجه، أي إنه يحيا في بولس. وهو إذ يحيا فيه — على أن يعي بولس بالإيمان هذا الأمر، ويقابل المحبة بالمحبة — فإنه يتّحد اتحاداً خاصاً بواسطة الصليب ببولس. وقد أوحى هذا الاتّحاد كذلك إلى بولس، في رسالته عينها إلى أهل غلاطية، عبارات لا تقلّ أهميّة عن تلك: "أمّا أنا، فليس لي أن أفتخر إلاّ بصليب ربنا يسوع المسيح الذي صُلب به العالم لي، وأنا به صُلبتُ للعالم" (غل ٦: ١٤).

بالموت تتحرّر الروح السجينة: "فإنّنا نحن الذين في الخيمة نئنّ مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يبتلع المائت من الحياة" (٢ كور ٥: ٤). إنّه تحرّر الروح من الخطيئة، تحرّر من حدود الفناء، تحرّر من التجارب والأحزان والهموم، تحرّر من انتظار الموت نفسه ومن نفور الطبيعة البشريّة منه.

استطاع بولس أن يقهر رُعب الموت من خلال شهادته التي نتأمّلها في كتاب أعمال الرسل. عندما أعلن الروح القدس أنَّ وُثُقًا وشدائد تنتظر بولس، وأنّ اليهود سيُسلمونه إلى أيدي الأمم (أعمال ٢٠: ٢١)، وعندما حزن المؤمنون على ذلك وطلبوا منه عدم الذهاب إلى أورشليم، قال لهم: "ماذا تفعلون، تبكون وتكسرون قلبي، لأنّي مستعدٌّ ليس أن أُربط فقط، بل أن أموت أيضًا...لأجل اسم الربّ يسوع" (أعمال ٢١: ١٣). كما قال: "لستُ أحتسبُ لشيء ولا نفسي ثمينةٌ عندي، حتّى أتمِّم بفرحٍ سعيي والخدمة التي أخذتها من الربّ يسوع لأشهد ببشارة نعمة الله (أعمال ٢٠: ٢٤).

يعلّمنا الموت أن نكتشف حقيقة ذواتنا. لعلّنا نذكر قصيدة كبلنج عن السفينة التي توهّمت أنّها كتلة من الحديد والمسامير، لكنّها حُلّت بعد بُرهة وانطلقت في المحيط لكي تمتحنها العواصف. وبعد أن عصفت بها العواصف وانحلّت خرزها وتفكّكت أوصالها وانفصلت كلّ ألواحها الخشبيّة، عند ذلك فقط أدركت فجأةً أنّها مجرّد سفينة. وهكذا نحن أيضًا لا نعرف حقيقة أنفسنا قبل أن ننطلق، قبل أن ترى طبيعتنا – المليئة بالأشواق والتذمّرات – حقيقة ذاتها في نور الأبديّة.

وبالموت أيضًا يدخل الإنسان الذي عاش حياته للمسيح إلى داخل الحجاب ويرى المسيح، ويكون معه بكيفيّة لا تُتاح له هنا. فإنّنا هنا نسلك بالإيمان أما هناك فبالعيان. هناك "نراه وجهًا لوجه، ويكون اسمه مكتوبًا على جباهنا" (رؤ ٢٢: ٤).

يقول الرسول بولس: "لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح. ذاك أفضل جدًّا" (فل ١: ٢٣). إن كانت الحياة مع المسيح هنا بركة، فالموت بركةٌ أفضل لأنّه يعطينا نصيبًا أوفر من المسيح. لا شيء يعوّض النفس أقلّ من هذا عندما تترك الروح الجسد الذي كان رفيقها المتواضع، عندما تضعه جانبًا لبرهة وجيزة لكي تلبسه ثانيةً يومًا ما في مجدٍ وجمال، فإنّها تنتقل إلى حضرة يسوع المسيح حيث تعرفه كما عُرِفَت وتراه وجهًا لوجه.

ولذا فإنّه أفضل جدًا، ويبدو أنّ هذا كان بعض ما عناه الرسول عندما قال "الموت ربحٌ". الموت هو بدء الحياة الحقيقيّة، هو التحرّر، هو انطلاق الروح لتجد ذاتها في حضرة المسيح. هو كمال إماتة الذات. وبالتالي، فالمزيد من الشركة مع المسيح يتحقّق بموت الجسد. ولذلك صرخ بولس قائلاً: "ويحي أنا الإنسان الشقيّ من يُنقذني من جسد الموت هذا" (روم ٧: ٢٤)؟ لذلك فهو يعتبر الموت هنا ربحًا. لأنّ في الأبديّة تتحقّق الراحة والفرح والمجد وكمال الشركة مع المسيح. ولكن يستحيل أن يشتهي الموت بفرح إلاّ من تذوّق عربون الفرح والشركة مع المسيح هنا على الأرض.

١. ٦ عصارة اختبار بولس الرسول

أحبّ بولس المسيح ونسي ذاته. فإرادة الربّ كانت هي خطّة الرسول. وقوّة المسيح كَمُلَت في ضعف خادمه. فوحدة المحبّة بين الرسول وخادمه، عَظُمت بمقدار أنّه سكن فيه. فالعهد الجديد ليس عقيدة معقّدة، بل تعاهدٌ وارتباطٌ والتصاقٌ واتّحادٌ مع المسيح. إستطاع بولس أن يوجز جميع مقاصده وأفكاره وأمنياته بعبارةٍ موجزة شهيرة: "حياتي هي المسيح". فخادم الربّ هذا، مات لنفسه ولشهواته. ومحبّته للمصلوب أشركته في صلبه. فثبت الروح القدس فيه، ألا وهو حياة يسوع بالذات. فعمل الربّ بواسطته. إنّ الموت لبولس هو سبب فرح، لأنّه بحصول الموت تظهر وحدته بالمسيح بطريقةٍ جديدة. فلا يخاف من ساعة الموت، بل يعرف أنّه يثبت في

الوحدة مع يسوع بدون انقضاء. وتجرأ بولس أن يقول إنّ الموت لأجله أفضل جدًا من الحياة. ولو تجاوب مع عواطفه لفضّل الموت حالاً، ليلتقي بالمسيح ويكون معه في المجد. ولم يفكّر الرسول بذاته، بل بإظهار وحدته مع الربّ، التي هي سرّ سيرته. عَلِمَ بولس أنّ الأنانيّة الروحيّة هي خطيئة. فاختار الحياة المتعبة في هذه الدنيا، "ليس ليُخدمَ بل ليَخدُم" (مت ٢٠: ٢٨؛ مر ١٠: ٤٥)، وليعذِّب نفسه بسفرات وعظاتٍ وأشغال يدويّة لكسب معيشته، لتنمو جميع الكنائس في محبّة يسوع وتزداد معرفتهم العمليّة للخدمة بواسطة معرفة الله المتزايدة والمسبِّبة فرحًا فوق فرح. هذا ما نراه في عدد المرّات التي يستعمل فيها بولس كلمة "فرح" في الرسالة إلى أهل فيليبّي. إنّها "رسالة الفرح"، لأنّ الابتهاج في المؤمن يتفوّق رغم السلاسل والسجن والحكم والموت. فحقيقة المسيح تغلب كلّ ضيق.

هذه الرسالة المكتوبة وبولس على مشارف الموت، فاضت بالمحبّة والغبطة والشكر أكثر من كلّ رسائله الأخرى. فتستطيع أن تملأ سامعها بفرح الله، وتريحه من مشاكله. لأنّ منها تجري قوىً عظيمة إذ عاش الرسول قرب ربّه، مفارقًا دنيانا وداخلاً إلى الحياة الحقّة ولربّما أصبح موضوع هذه الرسالة "فرحٌ في الربّ" يشكّل خَتمَ رسائل بولس كلّها.

٢. شهادة القدّيسة رفقا

إن سعى الإنسان إلى ملء فراغه من المسيح الذي أصبح كلّ شيءٍ له وامتلكه، يصبح الموت دافعًا قويًّا للاتّحاد بالمسيح، ويصنع الإنسان الإنجيلي قدّيسًا على مثال الكثير من القدّيسين، منهم قدّيستنا العظيمة رفقا التي تقدّست بقوّة آلام المسيح على الصليب وبنت في شخصيّتها ميزةً عجائبيّة تشبه المضاد الحيوي في جسد الإنسان[٨].

فلننظر ونتأمّل كيف عاشت القدّيسة رفقا باتّحادٍ مع المسيح، وما كانت نتيجة موتها بالجسد. فموتها أصبح عيدًا في الكنيسة والعالم لأنّه كان ولادةً جديدة لها في الملكوت السماوي. لقد قالت القدّيسة رفقا قبل مفارقتها الحياة الدنيا: "لستُ خائفة من الموت، بل أنتظره من زمان. الله يحبّبني بالموت، وإنّي أرغب أن أنحلّ فأكون مع ربّي (فيليبّي ١: ٣٣)"[٩]. بهذا الكلام، أصبحت رفقا أيقونةً حيّة تُخبر وتبشّر، تشهدُ وتستشهد، ومن خلال اختبارها تحدَّثت دون أن تتكلّم.

٢. ١ المسيح وحده يكفي

"نصيبي هو الربّ" (مز ١٦: ٥) وكفى! "فلا يعوزني معه شيء" (مز ٢٣: ١) لأنّه هو "حظّي ونصيبي" (مز١١٩: ٥٧)... هذا كان لسان حال القدّيسة رفقا، لأنّ المسيح أصبح كلّ شيءٍ في حياتها. تحرّرت رفقا من كلّ شيءٍ سوى المسيح وأفرغت ذاتها "لتمتلكه وحده، دون أن يُلهيها عنه شيء"[١٠]، فقد تذوّقت لذّة الحياة معه "ورأت فيها بداية مغامرة حبٍّ صافٍ لا تنتهي فصولها إلاّ على مشارف الأزل"[١١]، حيث اجترعت كأس حبّ الله حتّى الثمالة. وحده المسيح احتلّ قلبها وعقلها وكان الألف والياء في حياتها، حتّى ردّدت عن جدارة مع بولس الرسول: "من يفصلني عن محبّة المسيح؟ أشدَّةٌ أم ضيقٌ، أم جوعٌ، أم عريٌ، أم خطرٌ، أم اضطهادٌ أم سيف؟ كما هو مكتوب: إنّنا من أجلك نُمات النهار كلّه وقد حسبنا مثل غنمٍ للذبح. ولكنّنا في هذه جميعها نغلب بالذي أحبّنا.

---

[٨] راجع فادي المير (الأب)، **آمنوا حقًّا بالإنجيل**. دليل إلى عيش القداسة من خلال تطبيق الإنجيل في حياتنا اليوميّة، منشورات الرسل ٢٠١٣، ص. ٢٨.

[٩] راجع أنطونيوس شبلي (الأب)، **الأخت رفقا الريّس الراهبة اللبنانيّة**، مطبعة دكّاش، البوار ٢٠٠١ (طبعة ثالثة)، ص. ٣٩.

[١٠] بولس صفير (الأب) ، **روحانيّة القدّيسة رفقا**. حياتها وروحانيّتها، الكسليك: جامعة الروح القدس، ٢٠٠١، ص. ٥٥.

[١١] بولس صفير (الأب)، **روحانية القدّيسة رفقا**، مرجع سابق، ص. ٥٩.

فإنّي متيقّن أنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوّات، لا حاضر ولا مستقبل، لا علوّ ولا عمق، ولا أيّة خليقةٍ أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربّنا" (روم ٨: ٣٥-٣٩).

شعرت رفقا بأنّ المسيح وحده يكفيها ولا تستطيع أن تضيف شيئًا في قلبها إلى جوار الله. فعاشت سعيدةً مع الله، وقالت له بحبّ "ما لي في السماء سواك وعلى الأرض لا أبغي معكَ أحدًا" (مز ٧٣: ٢٥). لذلك عاشت محبّتها الحقيقيّة نحو الله بتجرّد، وعرفت أنّ الله لا ينافسه أحد في الحبّ، ولا يُنافسه شيء. تركت كلّ شيء ولم تندم على شيء[١٢].

فهمت رفقا أن الدعوة الرهبانيّة هي دعوة مُلحَّة لترك كلّ شيء واتّباع المسيح، وهذا ما يتطلّب منها حبًّا أكبر ألا وهو حبّ الله وحده فوق كلّ شيء. تجرّدت عن كلّ شيء وامتلكت الله ليمتلكها هو بالكامل. قبل آلامها وموتها الجسدي، ماتت عن إرادتها والتصقت التصاقًا وثيقًا بالمسيح "فلا الخلائق مهما سمت، ولا عواطف الطبيعة البشريّة مهما ثارت وقويت، ولا مغريات أهل العالم مهما سحرت وجذبت، ولا أموال الدنيا مهما تكدّست وتفاقمت، هذه كلّها لم يكن بإمكانها أن تحجب شخص المسيح عن عينيها، ولا أن تحتلّ مكان المسيح في قلبها وعقلها"[١٣].

ففي قناعة القدّيسة رفقا كان المسيح المرجع الأوّل والأخير. حبّها الحارّ له سيطر على جميع أشواقها، ودفعها إلى التشبّه به في كلّ مراحل حياته. إقتدت به في حياته الرسوليّة عندما زاولت الرسالة في جمعيّة المريمات، وفي حياته المستترة في الناصرة، من خلال انضوائها إلى الحياة النسكيّة والتأمليّة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، حتّى تاقت أخيرًا إلى التشبّه به في حمل الصليب فشاءت أن تغذّي محبّتها للمسيح باحتمالها الآلام الفادحة.

إنّ أجمل ما في حياة القدّيسة رفقا هو عالمها الروحيّ العميق الذي أوصلها إلى حماقة الصليب. فطلبت من المسيح أن يشركها بآلامه الخلاصيّة، إلى أقصى حدٍّ مُمكن، وأن يجعلها تفهم قيمة الألم الخلاصي الذي يطهّر النفس ويقدّس العالم.

٢. ٢ "واحدةً سألتُ الربّ وإيّاها ألتمس..."

أحبّت رفقا الله بعمق فوصلت إلى درجة الاكتفاء به. "واحدةً سألتُ الربّ وإيّاها ألتمس". ما هي هذه الواحدة التي بحثت عنها رفقا؟ "أن تقيم في بيت الربّ جميع أيّام حياتها وتتأمّل في هيكله" (مز ٢٧: ٤). في هيكلها الداخلي طلبت وجه الربّ والتمسته (مز ٢٧: ٨-٩). إنّ الحبّ الذي ملأ قلبها جعلها تردّد مع صاحب المزمور: "محبوبٌ هو اسمكَ يا ربّ، فهو طول النهار تلاوتي" (مز ١١٩:). وكلّ عملها اليدوي لا يشغلها عنه فكانت تسبّحه سبع مرّاتٍ في النهار على أحكام عدله (مز ١١٩). فكانت تنهض في نصف الليل لتشكره وتسبق عينيها وقت السحر لتتلو مع أخواتها أقواله التي كانت في حلقها أحلى من العسل والشهاد (مز ١١٩).

أحبّت رفقا المسيح فصغر كلّ شيءٍ في عينيها. كيف تريد شيئًا من العالم، بعد أن أشرق على قلبها نور المسيح العظيم، وبعد أن تعرّفت إلى الربّ، الذي هو أسمى من كلّ شيء، الذي وهبته قلبها، فصارت هي كلّها له، وصار هو لها؟

---

[١٢] هذا ما شهد له معاصروها أيضًا. مما قالته الأخت مريم الخوري خليل في رفقا: "كانت تفضّل الله على كلّ شيء. قد صرفتُ معها في هذا الدير نحوًا من خمس عشرة سنة، فما شعرتُ أنّ قلبها تعلّق يومًا بأحد، إلاّ بالله...ولو لم تكن متعلّقة بالله وحده لما كانت احتملت كلّ هذه الآلام، وفي كلّ تلك المدّة بهذا الصبر الذي لم يُعرف له مثيل" منصور عوّاد، **بركة عن قبر القدّيس شربل**، ج١، منشورات دير مار مارون، عنّايا ٢٠٠٠ (طبعة ثانية)، ص. ٣١٦.

[١٣] بولس صفير (الأب)، **روحانية القدّيسة رفقا**، مرجع سابق، ص. ٩٢.

أحبّت رفقا المسيح ليس فقط أكثر من أمور الأرض، وإنّما أكثر من حياتها ذاتها، فقدّمت حياتها من أجله، واثقةً بأنّ هذه الحياة لها امتدادٌ معه هناك في الأبديّة.

٢. ٣ رفقا المائتة مع المسيح والحيّة معه

عاشت القدّيسة رفقا تسعًا وعشرين سنة عمياء، كسيحة، ومخلّعة المفاصل. بآلامها وجراحاتها استطاعت أن تقول: رأيت الله، ناشدةً كمال الحبّ. فوصلت مع المسيح إلى الصليب بفرح لا يضاهيه فرح بالرغم من الآلام التي تحمّلت: "إن متنا معه نحيا معه" (٢ طيم ٢: ١١). هي ماتت مع يسوع وهي حيّة معه. أرادت رفقا أن تقول مع الرسول بولس: "أمّا أنا فذبيحة يُراق دمها. جاهدتُ الجهاد الحسن وها وقت انتقالي من هذا العالم حضر" (٢ طيم ٤: ٧). واستطاعت هذه القدّيسة أن تقول أيضًا: "حياتي هي المسيح والموت ربحٌ لي" (فل ١: ٢١).

في بدء سير رفقا وراء المسيح على طريق الجلجلة، شاء الله أن ينزع منها جمال العينين الذي كان قد حباها به، ساعة كوّنها في أحشاء أمّها، ليرفع ألحاظها إلى جمال وجهه، بعد أن بدأت تراه بشغفٍ بعين إيمانها الداخليّة، وابتُليت بالعمى وانشلّت جميع أعضاء جسمها حتّى حُرمت من كلّ شيء ما عدا اتّحادها بالمسيح، الذي جعلها تقرأ في كتاب الألم فرحًا لا يوصف. فظلّت وهي في معمعة أوجاعها وآلامها، مبتهجة ومسرورة جدًا تشكر الله قائلةً: "لمجد الله، مع آلام المسيح، مع إكليل الشوك المغروز في رأسك يا سيّدي"[١٤].

على مدى تسعٍ وعشرين سنة، ما عرفت رفقا إلاّ الاستشهاد اليومي. قدّمت ذاتها بالكامل لعريسها السماوي حتّى سُحق جسدها كلّه وتفكّك ليكون طعامًا لحبّها للمسيح. لم يكن ممكنًا احتمال تلك الآلام بالقوى البشريّة، وحتّى الحياة ذاتها لم تكن ممكنة في جسدٍ مائت وهو على تلك الحالة. فكان بقاؤها على قيد الحياة أعجوبة. كانت تموت كلّ يوم مع المسيح ثمّ تقوم من بين رُكام الأوجاع لتعود فتعبّ من كأس الآلام فلا ترتوي ولا تكتفي، بل تسأل المزيد!

٢. ٤ ذروة الحبّ في حماقة الصليب[١٥]

إنّ حياة رفقا لسرٌّ غامض على المنطق البشري، واحتمالها الآلام بصبر طيلة تسعٍ وعشرين سنة هو مدعاةُ ذُهلٍ وتعجّب لإنسان عصرنا الساعي إلى التمتّع بالصحّة التامّة ويرفض الألم[١٦]. إنّ في طلبها: "يا رَبي لماذا أنت مُتباعدٌ عنّي لا تفتقدني بمرض، ألعلّك ناسٍ عبدتكَ؟"[١٧] لجنونًا لا يفهمه إلاّ من كان يسوع موضوع حبّه الأوحد.

كانت رفقا تموت في كلّ ثانيةٍ من ثواني التسع والعشرين سنة. وما هو أشدُّ من الموت الدائم هو حبّها للمصلوب الذي تشبّهت به وفضّلته على كلّ شيء. وبالرغم من وصولها إلى أقصى حدّ ممكن من احتمال الطبيعة البشريّة، كانت تعتبر أنّها ما بلغت

---

[١٤] راجع أنطونيوس شبلي (الأب)، **الأخت رفقا الريّس الراهبة اللبنانيّة**، مرجع سابق، ص. ١٧.

[١٥] قال الشاعر نزار قبّاني: "من جُنَّ بالحب فهو عاقل، ومن جُنَّ بغيره فهو مجنون".

[١٦] الألم مسألة إنسانيّة يتأثّر بها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم في طول الأرض وعرضها، بحيث تبدو هذه الآلام كأنها نشأت مع الإنسان يوم مولده وأصبحت من جوهر طبيعته البشريّة. والألم يوجد في عمق أعماق الإنسان، لأنّه يُظهر ما في الإنسان من عمقٍ ليتخطّاه على طريقته، وهذا ما نقرأه في الكتاب المقدّس، كتاب الألم الكبير. راجع البابا يوحنا بولس الثاني (الطوباوي)، **الألم الخلاصي**، عدد ٢ و٦.

[١٧] راجع أنطونيوس شبلي (الأب)، **الأخت رفقا الريّس الراهبة اللبنانيّة**، مرجع سابق، ص. ١٦.

من أوجاع ما بلغه المسيح في حياته. فكانت تقول لأخواتها الراهبات: "لا في يديّ ورجليَّ مسامير ولا في جنبي رمح. ليس رأسي مكلّلاً بالشوك كرأس ملكي وإلهي الحبيب يسوع. ليس في يديّ ولا في رجليّ مسامير، كما في يديه ورجليه. وأنا أكفّر عن خطاياي، وأما هو فلأجلي تألّم ومات. ليس كتفي يحمل صليبًا بثقل صليب يسوع. وليس في جنبي رمحٌ كما طعن الرمح جنب يسوع"[١٨].

هامت رفقا بالمصلوب حتّى جُنَّت به جُنونًا لا يعرف حدًّا. فلم يعد يهنأ لها عيش إلاّ كلّما رأت نفسها قريبةً من يسوع، شبيهةً به، تعيش معه على الصليب، متألّمةً بآلامه، سعيدةً بأوجاعها، مائتةً عن الدنيا في كلّ لحظة من حياتها مع يسوع وحبًّا به. فأصبح بإمكانها أن تردّد مع بولس الرسول: "إنّي حكمتُ بألاّ أعرف فيكم شيئًا، إلاّ يسوع المسيح وإيّاه مصلوبًا" (١ كور ٢: ٢)، ولا تطيب لها الحياة إلاّ إذا كانت مصلوبةً مع يسوع. لذا رفضت رفقا النزول عن الصليب لأنّ يسوع أراد أن يسير في حماقة الصليب حتّى النهاية. وهذه الحماقة هي "أنّه أحب خاصّته، أحبّهم إلى الغاية" (يو ١٣: ١).

من هذا المنطلق، "ذروة الحبّ في حماقة الصليب"[١٩] هو إعلانٌ عن انغواءٍ بالربّ بحسب تعبير النبي إرميا: "لقد أغويتني يا ربّ فانغويت" (إر ٢٠: ١). هو اتحادٌ بشموليّة محبّة الله غير المشروطة للبشر والشهادة لهذه الشموليّة[٢٠].

٢. ٥ عصارة اختبار القدّيسة رفقا

إنّ من يتأمّل في مراحل حياة القدّيسة رفقا، تستولي عليه الدهشة ويعروه الذهول أمام قصد هذه الراهبة الثابت وقرارها الحاسم في اتبّاع المسيح وبطريقةٍ جنونيّة[٢١]. أحبّت المسيح بدون حدود ولا رجوع، وأولت اتّحادها به كلّ اهتمامها، فلم يكن يثنيها عنه شيء. غذّت حياتها من مَعِين محبّة المسيح فكوّنت غذاءً روحيًّا لنفسها الوثّابة إلى الأعالي. ملأ المسيح كيانها وشغل تفكيرها وأجّج نار محبّته الإلهيّة في قلبها طيلة حياتها على هذه الأرض. وجدت رفقا في هذه المحبّة قوتّها وشجاعتها لتموت مع المسيح عن إرادتها ورغباتها وعن حُطام هذه الدنيا، ونمت بالشكر الدائم لذا الاتّحاد الحميم، مُحَقِّقةً في ذلك قول بولس الرسول: "وأنتم كما اخذتم المسيح يسوع هكذا اسلكوا فيه، متأصّلين فيه، ومبنيّين عليه، ومثبّتين في الإيمان كما تعلّمتم، ونامين فيه بالشكر" (كول ٢: ٦-٧).

استأثر المسيح بكلّ كيان رفقا فاتّحدت به لكي لا تنفصل عنه أبدًا، لأنّها علمت أن المسيح إلهٌ غيور لا يُطيق شريكًا له يُنافسه على محبّة قلب النفس المكرّسة له. فاستماتت للحفاظ بأمانةٍ بالغة على حبّها له، ورأت في هذه الأمانة موتًا يوميّا وتخلّيًا عن كلّ شيء حتّى عن إرادتها وصحّتها. هذا ما أهّلها لحمل الصليب بفرحٍ واستسلامٍ مُطلق لإرادة الله. ماتت رفقا أولاً عن إرادتها،

---

[١٨] راجع پيار سعاده (الأب)، **رفقا الجرح السادس**، لبنان ١٩٨٦، ص. ١٧٣.

[١٩] يقول القدّيس باسيليوس الكبير: "كأن إلهنا لا يقدر أن يُشبع جوعه لمحبّة البشر حتّى إنّه كان يشتهي أن يموت عنهم" باسيليوس الكبير، . من يصدّق أنّ الخالق يموت حبًّا بخليقته؟ وصفت مريم المجدليّة يسوع بالمجنون. يعني أنّ يسوع صار مجنونًا في الحبّ وهذا هو الشيء الذي كانت الشعوب كلّها تعتبره جنونًا وحماقة.

[٢٠] راجع عظة البابا بندكتوس السادس عشر في حفل توقيع الإرشاد الرسولي **الكنيسة في الشرق الأوسط شركة وشهادة**، حريصا، الجمعة ١٤ أيلول ٢٠١٢.

[٢١] من يمكنه اليوم أن يعيش جنونًا كهذا؟ من يمكنه أن يقبل بالعذاب وينحني أمام حكم تعليقه على صليب الألم الذي ليس فيه إلاّ الموت؟ لم ولن يكتب التاريخ حدثًا كهذا إلاّ لشخصٍ واحدٍ ألا وهو يسوع المسيح، روح الحبّ الخالص وعاشق خلاص الإنسان حتّى جنون الصليب. لكنّ القدّيسين أمثال رفقا عرفوا كيف يدخلون في منطق هذا "الحبّ المجنون".

وضحّت بمشيئتها الشخصيّة تجاه مشيئة المسيح، قبل أن تحمل صليب الآلام الثقيل وتقاسي الآلام المريرة وتموت موتًا طبيعيًّا. لقد ماتت، بادئ ذي بدء، موتًا اختياريًّا معنويًّا، قل أن تموت موتها الجسدي.

لم تطلب رفقا الألم حبًّا بالألم والعذاب بحدّ ذاته، ولكن لأنّه وسيلة فيها تُظهر محبّتها للمسيح، وبواسطتها تكفّر عن خطاياها وخطايا الآخرين. وكان كلّما زاد الألم فتكًا في جسدها، ازدادت نيران الحبّ في قلبها سعيرًا وتأجُّجًا[٢٢]. فنمت محبّتها للصليب والآلام مع نموّ استسلامها الواعي لمشيئة الله.

لقد وجدت رفقا في الآلام طريقها الأقرب إلى الله، وعلمت في قرارة حدسها أنّه لو كان هناك طريقة أفضل من الآلام لتحقيق سرّ الخلاص وفداء البشر، لكان المسيح سار عليها. في عالمٍ يتهافت فيه الناس على تسهيل سبل العيش، وعلى التمتّع بملذّات الحياة، وعلى إشباع شهوات الجسد والميول المنحرفة، وفي عالمٍ يتسابق فيه الطبّ لتخفيف آلام البشريّة المعذّبة، تُطلُّ القديسة رفقا مثالاً حيًّا للمرضى والمتألّمين.

إذا كانت الآلام التي عانتها القدّيسة رفقا أبجع وسيلةٍ للاتّحاد بالمسيح، فإنّ الاستسلام لهذه الآلام بفرح وسرور يبقى سرًّا غامضًا لا يفهمه إلاّ من اختبره[٢٣]. فكلّ من يتأمّل بحياتها يُدهش من قوّة صبرها على احتمال الألم، ولكنّ الشيء الذي لا يفهمه ولا يجد له تفسيرًا، هو فرحها الداخليّ والسلام الذي كان يُشعّ نورًا على مُحيّاها. إنّها قوّة المحبّة العظمى التي تخفّف شدّة الألم وتطغى على حدّته، فيفقد معها المحبّ كلّ شعورٍ بها. وهذا ما عبّر عنه القدّيس أغوسطينوس في اعترافاته بقوله: "أيّها الحبّ الذي يشتعل دومًا في داخلي، ولا ينطفئ أبدًا...حين أتّحدُ بك بكليّتي، أفقد كلّ شعورٍ بالألم والتعب، وتمتلئ حياتي منك وتصبح حياةً صحيحة"[٢٤].

أخيرًا لا آخرًا، "حياتي هي المسيح والموت ربحٌ لي" عبارةٌ تجسّدت في حياة رفقا من خلال روحانيّة الجراح التي يتوهّج من كلومها فرح الفداء ونور القيامة. هذه الجراح أثمرت فرحًا، لأنّ الألم تحوّل إلى موت ومن الموت وُلد الفرح. لم يختفِ الألم، بل بقي كحالةٍ تعيشها، إنّما انعدم كوجود.

خاتمة

في المقدّمة طرحنا السؤال: من هو يا ترى الذي يفرح بالموت؟ والآن نجيب إنّه المؤمن بالربّ يسوع المسيح الذي ترخص الأرض في عينيه، والذي يعيش حياته الأبديّة ابتداءً من هذه الأرض الفانية منتظرًا الانتقال إلى موطنه الأصلي. لهذا الإنسان يكون الموت ربحًا، به ينتقل بالمسيح إلى السعادة الأبديّة أمام خالقه وفاديه.

في البحر سفينتان: الواحدة رفعت مرساتها وبدأت رحلتها، والثانية ما تزال تنتظر في الميناء. الأولى حملت الأحباء في رحلتهم الميمونة الى السماء والثانية تنتظرنا، فلنحرص على أن نكون مستعدّين حين تأتي لحظة إقلاعها. ولنَحسَب أناة ربنا خلاصًا. متذكرين وصيَّة المسيح: "لذلك كونوا أنتم أيضًا مستعدّين، لأنَّه في ساعةٍ لا تظنّون يأتِي ابنُ الإنسان" (مت ٢٤: ٤٤). "فإنّي محصورٌ من

---

[٢٢] لقد اكتسبت حبّ المسيح، فحرّكها هذا الحب لأنّه "أخذ بمجامع قلبها" (٢ قور ٥: ١٤). راجع أيضًا البابا بنديكتوس السادس عشر، **الله محبّة**، عدد ٣١-٣٩.

[٢٣] لنفهم الألم علينا أن ننظر إلى وحي المحبّة الإلهيّة التي هي الينبوع الأخير لمعنى كلّ الكائنات. والمحبّة هي أيضًا الينبوع الفيّاض لمعنى الألم الذي يبقى دائمًا سرًّا. ونحن نعرف أننا مهما حاولنا شرحه، فلن نفي بالموضوع. وحده المسيح يُدخلنا في السرّ ويحملنا على اكتشاف معنى الألم الخلاصي على قدر ما نستطيع أن نتفهّم سموّ المحبّة الإلهيّة. راجع البابا يوحنا بولس الثاني، **الألم الخلاصي**، مرجع سابق، العدد ١٣.

[٢٤] يوحنا الحلو (معرّب)، **إعترافات القدّيس أغوسطينوس**، بيروت: دار المشرق، ١٩٩١ (سلسلة التراث الروحي)، ص. ٢١٨.

الاثنين" (فل ١: ٢٣) الحياة المسيح والموت الربح، هذا كان قول الرسول بعد المقابلة بين الأمرين الخطيرين. إلا أنه انتهى أخيراً إلى القول: "أن أبقى فِي الجسد ألزم من أجلكم" (فل ١: ٢٤). فقد علم الرسول أن الله استحسن أن يستخدمه بعد لتقوية الكنائس التي أسسها والتي ما زالت في حاجة الى رعايته. فقد يكون جميلاً أن ننطلق إلى ما هو أفضل حينما يفتح لنا الباب، وإنما هناك أسباب ترجّح كفَّة البقاء في هذه الحياة. صحيح أن الذَّهاب يؤدي بنا إلى الديار الخالدة حيث يوجد المسيح الرب لنخدمه في السماء. ولكنَّ الخدمة هنا أكثر ضرورة. فهناك لا يوجد ابن ضالّ لإرجاعه، ولا خروف شارد للبحث عنه، ولا نفس يائسة لإشاعة الرجاء فيها.

أما هنا فيوجد أشخاص ساقطون في استطاعتنا أن نسندهم، وضالُّون في استطاعتنا أن نهديهم وحزانى في استطاعتنا أن نعزّيهم، ومنكسرون نستطيع أن نجبرهم، وجرحى نستطيع أن نعصب جراحهم. نعم من أجل هؤلاء لا أريد أن أنطلق قبل وقتي. وإيمانًا بهذا المفهوم كتب الجنرال وليم بوث، مؤسس جمعيَّة جيش الخلاص على أوتوغراف إحدى السيّدات: إنَّ حياتي تمرُّ سريعًا، ومهما طالت، فبعد قليل ستكون في حكم الماضي. أفلا أكرم ربِّي ومخلِّصي في مواساة الناس، والتخفيف من آلامهم؟ كلُّنا نمرُّ في لحظاتٍ يشتدُّ فيها حنيننا إلى أورشليم السماوية حيث مسكننا مع الله. ولكن من الأفضل أن نبقى هنا، طالما يوجد درس آخر لنتعلمه، أو رسالة أخرى لنتمِّمها، أو نفس أخرى عطشى لإروائها، أو ضالّ واحد لإرجاعه. بعد يومٍ حافل في العمل المتواصل استسلمت سيِّدة تقيَّة للنوم فحلمت أنها ترتفع الى المدينة السماويّة وأهل السماء يرحِّبون بها. ولكنَّها سمعت أصواتًا خلفها فنظرت لترى، وإذا بمئاتٍ من الرجال والنساء يمدُّون أيديهم مستغيثين بها لكأنهم يودُّون الذهاب معها. فصلَّت متأثرة من هذا المنظر قائلة: أيها الآب لا تأخذني الآن من أجل هؤلاء. ولما استيقظت صمَّمت على أن تجذب أكبر عددٍ من النفوس نحو السماء، والربُّ أعطاها سؤل قلبها فقد آمن كثيرون بواسطة شهادتها.

هكذا تصرَّف يسوع تاركاً لنا مثالاً لنتبع خطواته فلم يشأ البقاء على جبل التجلِّي بالرغم من ترغيبات بطرس، بل هبط إلى الحضيض حيث كان أبٌ حزينٌ ينتظره لشفاء ابنه المعذَّب من الأرواح النجسة. وهكذا تصرَّف الرسول بولس، متمثِّلاً بسيِّده الذي لأجل خلاصنا احتمل الصليب مستهينًا بالخزي. فقد كان بولس متيقِّنًا أنَّ رغبته في البقاء، مقبولة لدى ربِّه وفاديه ومرسله. ولهذا نراه يقول: فإذًا أنا واثق بهذا أني أمكث وأبقى مع جميعكم لأجل تقدُّمكم وفرحكم في الإيمان. فليكن فينا فكر الرسول من جهة الحياة والموت وليكن شعارنا بعد الآن قوله في رسالته الى أهل روما: "إن عشنا فللرّبِّ نعيش، وإن متنا فللرّبّ نموت. فإن عشنا وإن متنا فللرّبّ نحن" (روم ١٤: ٨).